سيمياء الرحلة في الشعر الشفاهي
من حياة الرحلة إلى رحلة الحياة

الأستاذ: زغب أحمد
المركز الجامعي الوادي

مِنَ الْمُقَرَّر لدى علماء الأنثروبولوجيا، أن الذهنية الشفاهية تتسم بتفكير موقفي وسلوك عملي ، بسبب أن هذا الإنسان شديد الاتصال ببيئته الطبيعية والاجتماعية ،يفكر في موضوعه من خلال موقفه الشخصي المباشر منه، لا تفكيرا مجردا في الموضوع من حيث هو ، إنما من حيث ما ينبغي فعله إزاءه ،أو من مدى الصلاحية النفعية لهذا الموضوع في الواقع المعيش([1]).

والفكر الذي يكون بهذه المواصفات ينتج أدبا لا يكتسب معناه إلا من خلال السياق الوجودي الحاضر ،''فالكلمات تكتسب معانيها من موطنها الفعلي الملح الدائم ولا يكمن هذا الموطن في كلمات أخرى ولكنه يتضمن إشارات جسمانية وتنغيمات صوتية وتعبيرات بالملامح بالإضافة إلى كلية الموقف الوجودي الذي تجد فيه الكلمة الحقيقية المنطوقة نفسها دائما ،وبرغم أن المعاني الماضية شكلت معنى الحاضر بطرق كثيرة ومتنوعة لم تعد معروفة ، فإن معاني الكلمة تنبثق باستمرار من الحاضر''([2])

والشاعر الشفاهي ،في المجتمع البدوي الذي يعيش على الترحال الدائم إلى مواطن الكلأ والماء، مندمج في حياة الجماعة إذ لا حياة له إلا من خلالها ، يجدّ في السير إلى المنتجع الجديد ، ويفرح ويبتهج عند العثور على أسباب جديدة للعيش،ويحقق ذاته عند كل انتصار على الطبيعة القاسية التي تفرض عليه التنقل الدائم ،لا يكاد يفرغ من رحلة حتى يأخذ في التفكير بل والتحضير لرحلة أخرى ، حتى أصبحت الرحلة ليست وسيلة للوصول إلى المنتجع وحسب ، بل هي الغاية في ذاتها فلا نكاد نعثر على نص شعري في هذه المجتمعات إلا إذا كانت الرحلة السمة البارزة فيه.وذلك بسبب ما زعمنا في مستهل هذه الورقة من التفكير الموقفي العملي المباشر في الموضوع والارتباط الحميمي به .

فعلى الرغم مما في الرحلة من مخاطر تحدق بالبدوي الشاعر ،ومن مشقة فإنه يتوق إليها باعتبارها الوسيلة الوحيدة التي تحقق ذاته ، فمن الرحلة إلى مصادر العيش (= قيمة اقتصادية)إلى الرحلة إلى المكان المقدس (=قيمة ثقافية دينية)،إلى الرحلة إلى ربع

المحبوبة (= قيمة إنسانية واجتماعية) ،لا ينظر إلى حياته إلا من خلال الرحلة الموفقة التي يتمكن فيها من إنجاز المهمة المنوطة به ومجتمعه (=النجع) فلا عجب إذن أن ينظر إلى الحياة برمتها على أنها رحلة.

نحاول أن نطبق المنهج السيميائي على سمة الرحلة باعتبارها سمة بارزة تحتل فضائين : الفضاء الأول باعتبارها علاقة اتصال الذات بالموضوع ، والفضاء الثاني باعتبارها الموضوع نفسه.وذلك دائما من خلال النص الشعري الشفاهي.

نتناول نوعين من القصائد(♦♣) : في النوع الأول يكون الشاعر في حالة رحيل أو تأهب للرحيل لسبب من الأسباب السابقة،في هذه الحالة تكون الرحلة وسيلة للاتصال بالموضوع ،تبدأ القصائد بملفوظ حالة ، ناشئة عن علاقة انفصال يعبر فيها الشعراء عن المعاناة ، بسبب بعد الموضوع أو ابتعاده بعدا سحيقا فلا يسع الشعراء إلا أن يحضروا أنفسهم للرحيل في مسارات صورية تعبر عن الذات (حرقة الشوق ،معاناة من سهر الليالي، الحمى الشكوى من صدود المحبوب أو وعورة الطريق ...الخ)

حَيَّرْ نُومِي بِالسَّهَرْ لاَ لِي فـتْرَةْ شَيَّنْ حَالِي وَالْبِدَنْ دَايِمْ فَانِيـــــهْ
يِثْقُبْنِي مِشْعَالْ وُدْمُوعِي مَطْـرَهْ يُعْرُضْنِي حُومَانْ فِي الْكَبْدَةْ صَالِيهْ
وَطْنُو جَانِي بْعِيدْ لاَ عِنْدِي قُدْرَة ظَهْرِةْ تَازَة شُورْ نَا سِرِّي نحـكية
للفاس المعلوم سهل لي الخطرة بيها يفرح خاطري محبوبي بيه (♣)

أو تعبر عن عنصر أوعناصر مساعدة كوسيلة قطع المسافة،كالفرس أو الجمل الهجين أو غير ذلك من الوسائل التي يتغنى بها الشعراء في مسارات صورية ،تشيد بالوسيلة المساعدة بحكم أنها أمله الوحيد المساعد على الرحلة ، في هذه الحالة تكون الرحلة موضوعا جانبيا ممهدا يحقق للشعراء الموضوع الرئيسي : الربع ، المحبوب ، الشيخ ...الخ

تَرْضَى لِي صَبَّارْ ضَارِي بِالْخَطْرَةْ أَزْرَقْ دَارْ بْدَارْ مِنْ صِيلَة نِرْضِيهْ
بِالْعدة متـموم وركابو قـمرة ومن عين الحساد مولا نا حاميه (*)

أو تعبر عن العناصر المعارضة كوعورة الطريق وأنواع الأراضي والأخطار المهددة كالوحوش والغيلان واللصوص والجبال...الخ

دُونُو حَالْ سْرَابْ وْحَمَايدْ قَفْرَا وَقْنَاطِر تْحْرَاشْ لاَحْ الْغِيمْ عْلِيهْ
بَرْ تُسُكْنَهْ كَانْ لَغْوَالْ التِّنِّينْ وَالصِّيدْ صَهَّالْ

كَانْ وَحِشْ وَنْعَامْ وَغْزَالْ وَالذِّيبْ وَالضَّبَعْ يِنْجَالْ...الخ(•)

ينجم عن ملفوظ الحالة ، انتقال إلى الرحلة التي بدورها تحول للاتصال بالموضوع(فا=فاعل،م الموضوع، ∩ =اتصال ∪=انفصال، — ∩ ←= تحول بالاتصال، —∪← =تحول بالانفصال) وبذلك يكون الانتقال من الحالة إلى التحول كالتالي:

فا∩م ←——— فا—∩ ← م

أما النوع الثاني ، فحين يستبد بالشاعر الشيب والهرم ويقيم في الحاضرة ، يشتاق إلى حياة النجع ،حيث كان يعيش بأحلامه وآماله ، يملأ الدنيا حركة ونشاطا، يتوق إلى الحياة حين تكون ذات مبررات قوية تملي عليه أن يحياها،يحلم بالرحيل إلى ربع الحبيبة ، بل يرحل فعلا لزيارة أقاربه وقريباته الذين سبقوه إلى المكان المعشب ، وهو في حالة طرب وسعادة لأنه ملتحق بهم لا محالة .

كل ذلك ينعدم في الحاضرة ،فلم تعد هناك أسباب كافية للحياة ، وكأنما الحياة نفسها ترتحل حين يرتحل النجع ويتركه لهمومه واليأس والشيخوخة يستبدان به.ومن ثم فالرحلة أصبحت معادلا موضوعيا للحياة ، والإقامة لم يعد بعدها إلا الموت:

وْتَوْ هَا كِي عُدْتِ قِيطَانَهْ وَالْبَابْ مْسَكَّرْ بِقْفُلْ
وْلاَ عُدْنَا نْشُوفُو بَعْضَانَا وْلَا حْبِيبْ عْلَى حْبِيبَهْ يْطُلْ
وْلاَ بِنْتِ الْعَمَّةْ وْلاَ الْخَالَهْ حْبَابْ جِمْلَةْ طَقَّتْهَا عْقُلْ
وْيَا وَخْذِي رَاحُو الرَّجَّالَة حَتَّى الْمَانَعْ بَكْرِي حْصُلْ
مَازَالَتْ كَانْ الدَّفَّانَةْ اللهْ أَكْبَرْ وَالْوَقْتْ وْصُلْ
رَحَلْ صَدّْ النَّجْعْ وْخَلَّانَا وْهَزّْ جْحَافَهْ فُوقْ الْبِلّْ (♥)

أما رحيل النجع فهو تحول ينجم عنه ملفوظ حاله جديد يتسم بالكآبة والمعاناة، هذه المعاناة لم يعد سببها الافتقار إلى الموضوع ، إنما الافتقار إلى الرحلة نفسها إذ تحولت إلى موضوع بديل، فانفصال ذات الفرد (ببقائه في الحاضرة) عن ذات المجتمع(برحيله) إنما هو المعاناة ثم الموت.وهذا مايؤكد الذهنية الشفاهية المندمجة في الحياة الاجتماعية إذ لا يغادر الفرد مجتمعه طواعية إنما المجتمع هو الذي يرحل عنه ويتركه،وذلك حين يستنفد حظه من الحياة .(رَحَلْ صَدّْ النَّجْعْ وْخَلَّانَا).

فا= الفاعل (الشاعر)م1= موضوع القيمة (النجع)

فا∩م1←فا — ∪ ←م1——←فا∪م1

ففي النوع الأول يعبر النص الشفاهي عن الشباب والقوة والعنفوان، أما في النوع الثاني فتعبر النصوص عن الشيخوخة والهرم وانتظار الموت المحتوم.

يلتقي موضوع القيمة في النوع الأول من النصوص بموضوع القيمة في النوع الثاني في أن كليهما يقيم علاقة تضاد مع الموت ، ففي الحالة الأولى يرتحل الشاعر والمجتمع كله من أجل الحياة في شكلها الاجتماعي أو الثقافي أو الانساني ، فموضوع القيمة لا تستقيم الحياة بدونه (ربع الحبيبة، ضريح الشيخ ،مواطن الكلأ والماء)، أما في الحالة الثانية فموضوع القيمة الذي يتوق إليه الشاعر ويعبر عنه بزمن الماضي من قبيل الذكريات الجميلة حين كان يتدفق بالقوة والحيوية والعنفوان فهو الرحلة نفسها، فقد كان يحياها في كل مراحل حياته الفاعلة ،يأمل أملا بعيدا في أن يعود إليه شبابه ، وتعود إليه رحلة حياته من بدء سيرها.

وعلى ذلك يمكن أن نقيم البنية العميقة للرحلة في النص الشعري الشفاهي كما يلي:

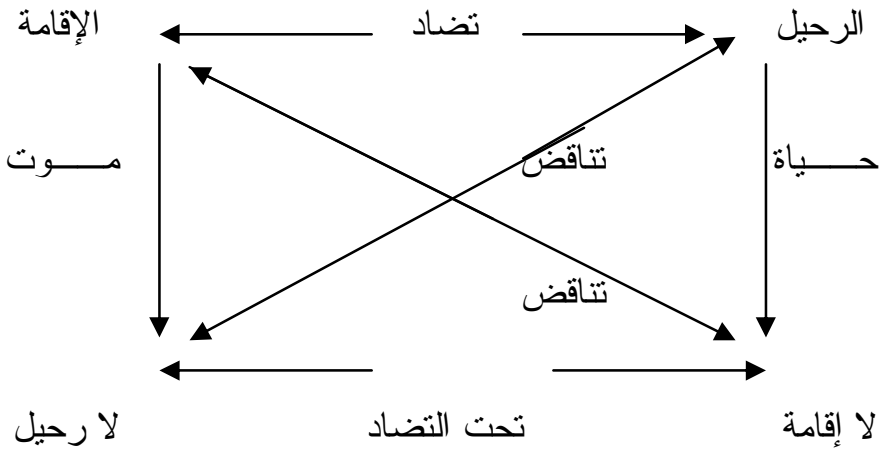

وما دامت الحياة رحلة دائمة،فهل يسعى الإنسان البدوي بهذه الحركة الدءوب إلى مصادر العيش ،ليحاول الانتقال إلى الأحسن والأفضل في هذا العيش ، ومن ثم تكون الرحلة في حركة متقدمة إلى الأمام في خط مستقيم قصد الغاية التي تمكنه من كفايته في الغذاء والأمان والاطمئنان على نفسه وماله وأهله وقيمه الثقافية، أم هي الحركة والتحول الدائمين بدون أن يكون له هدف أسمى وكأن التحول الدائم هو غايتة السامية.

وبعبارة أخرى هل للبدو فكرة واضحة عن التقدم والتأخر ، وعن الأسوء والأفضل ، أم أن ما لديهم هو فقط الحركة والتحول الدائم والصراع على مصادر الحياة، وبدون

ترحال لا يكون هناك هدف للحياة إلا الموت مثلما كانت للفلاسفة القدامى فكرة عن الحركة الدائمة التي سببها الصراع وهو الذي يؤدي إلى تحول الأشياء بعضها من بعض كما عند هيرقليط([3])

إن الحياة الاجتماعية القائمة على أواصر القرابة (النجع=العائلة الموسعة) والتنظيم الاقتصادي القائم على الرعي والتحويلات البسيطة ،لنتاج الغطاء النباتي والثروة الحيوانية ،والبيئة الطبيعية الصحراوية المجدبة التي تفرض الرحلة الدائمة إلى أراض جديدة كلما نضبت الأراضي الحالية ، والتكامل بين هذه الأشكال المختلفة للثقافة يرجح الخيار الأول ويستبعد عبثية الحركة،ذلك أن العامل الديني والتفكير فيما وراء الحياة الدنيا باعتباره الغاية الحتمية للرحلة ،حاجة لازمت البشرية في أغلب الحضارات([4])، ومن ثم تبرز في النصوص هذه السمة البارزة، وهي المقدس كموضوع رئيسي لكثير من الرحلات، أو داعم معنوي رئيسي لرحلات أخرى:

فمن أمثلة الأول:

مَقَامُو يزْيَانْ يرْهِبْ بِالنَّظْرَة وْمِنْ شَافْ الأَسَدْ يَرْجَعْ عَنْ تَالِيهْ
بَابْ اللهْ مَفْتُوحْ فِي ذِيكْ الْحَضْرَةْ بِضْمَانَةْ الرَّسُولْ صَلَّى اللهْ عَلِيهْ
عَنْ بَابَهْ نِرْتَاحْ نُطْلُبْ يَافُقْرَا سَعْدِ اللِّي أَتَاهْ بِالْخِيرْ يجَازِيهْ (♣*)

ومن أمثلة الثاني:

مِجَابَة تْحَفِّي مَا يْجُوزْهَا خَاطِي خَفِيفْ مْعَفِّي
أَحَجَلْ كِمَا جَدْيِ الْغَزَالْ مْصَفِّي وْعَنَّه ْخْزَامَى وْرَاحْلَةْ مَشْدُودَةْ
مِنْ بُكرْتَهْ نَايضْ عَلِيهْ مْقَفَّي عْمَ ثُورْتَهْ **صَلَّى وْطَلَبْ مَعْبُودَهْ**
جَاتْ دُونْ مَبْرُوكَة مِجَايبْ كُوودَهْ([O])

أما الحياة الحقيقية فهي الرحلة ، التي تشتشف من باطن النص حسب الثقافة الدينية التي يعتقدها هذا المجتمع ،الرحلة عن الحياة الزائفة ،فهي متاع الغرور([5]) ؛لأن الموت يترصدها في كل لحظة، والانتقال إلى الحياة الخالدة التي لا موت فيها.

الدّنْيَا اللِّي وَرَاهَا الْمُوتْ يَقْطَع بْيهَا بِيتْ قَالْعَة وَالرِّيحْ تَذْرِي فِيهَا♣*

المراجع

[1] -: مع أن كلود ليفي ستراوس يقول منتقدا رأي مالينوفسكي الذي يرى أن تفكير الانسان البدائي تحت طائلة الحاجة : "L'univers est objet de pensée au moins autant que moyens de satisfaire les besoins"La pensée Sauvage. Plon Paris 1962.p.5

[2] - والتر أونج الشفاهية والكتابية ص112

♣♦ - القصائد التي اقتبسنا منها من شعر بادية سوف (الجزائر)وبادية المرازيق (تونس) والشعراء على التوالي معمر التغزوتي توفي 1973 ثابت الطويل المرزوقي توفي 1990 الصغير قدور بن على بن جموعة الحجاجي توفي 2000 وسعد بن غادة المصباحي الربعي توفي 1989.ومسعود السحيمي المصباحي الربعي توفي 1995

♣ - يقول الشاعر إن ذكرى أرقته وأذهبت النوم منذ مدة طويلة فساءت حاله وكاد بدنه أن يفنى ، وكأنما نار مشتعلة تتأجج في أحشائه ، ودموعه فهي غزيرة كأنها المطر وتتصهد الحرارة الشديدة في كبده ، لقد كادت هذه الذرى أن تفقده صوابه ،ويمكث الشاعر يعاني الحزن والألم حتى يلقى (شيخه) الذي تذكره وبسبب الشوق إليه كانت مظاهر المعاناة هذه التي وصفها.

* -يقول الشاعر لمخاطبه المفترض أنه يليق به من أجل هذه الرحلة حصانا قويا ألف السفر الطويل، من سلالة نقية شديد السواد إلى درجة الزرقة ، حظي بعدته الكاملة وركابه جديد وقد حصنه الله من عيون الحاسدين.

• في البيت الأول يقول : لقد حال بيني وبينه سراب كثيف وأراضي خالية ومرتفعات وعرة مكسوة بالغيم من فرط ارتفاعها .أما في البيت الثاني فيقول عن الأرض التي تفصل بينه وبين هدفه أن الغيلان والوحوش والذئاب والتنين والأسد والضباع كل هذه الوحوش تسكن هذه الأرض.

♥ يقول وها أنت ذي أصبحت مقيمة في الحاضرة والباب قد أغلق من دونك ، ولم يعد بالإمكان أن يرى الحبيب حبيبه، ولا الأقارب والقريبات من بنات العم والخالة فكل الأحبة حبسوا عن الترحال وأقاموا ، أما الرجال الصناديد فقد رحلو ،ولم يبق إلا الشيوخ الذين لم يعودوا قادرين على الرحيل ، ولم يعد إلا الموت فقد أزفت نهاية العمر

[3] - ينظر :حسين مونس الحضارة عالم المعرفة الكويت 1978 ص131

[4] - أغلب الحضارات الإنسانية تعتقد بوجود حياة أخرى بعد الموت، شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا إنكليزي – عربي م DEATH ص.244.

♣ - يقول إن ضريح هذا الشيخ ذو هيبة وجلال يثير الرهبة في نفوس الأعداء من مجرد االنظر إليه وفي تشبيه ضمني يقول إنه لا عجب في ذلك فمن يرى الأسد لا شك يعود من طريقه ، وفي حضرة هذا الشيخ أو عند ضريحة يفتح باب الله والضامن لقبول الدعاء هو الرسول(ص) نفسه.ويقول إنه يشعر بالارتياح لأن كل الدعاء مستجاب والفقراء هم الذين لا يؤمنون بكراماته وصاحب السعد من جاءه متوسلا فجزاؤه الخير كله.

O - مسافة طويلة ترقق الأقدام ،لا يقطعها إلا جمل هجين أبين خفيف طويل الوبر لم يستخدم في حمل الأثقال. كأنه الغزال وشدة عنه الرحلة وقيد بالخزامى فهو طوع راكبه ، صاحبه ينهض من الصباح الباكر معتمدا على الله وصلى ودعا أن يعينه الله في هذه الرحلة الشاقة.

[5] - هناك آيات كثيرة بهذا المعنى في القرآن الكريم للتزهيد في الحياة الدنيا والترغيب في الآخرة منها قوله تعالى (:وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)) آية 20 من سورة الحديد.
♣ صيغة دعاء: قطعت الدنيا التي بعدها الموت،فكأنها خيمة مقتلعة والرياح تعبث بها من كل جانب.